أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣٩ —

حين يتصلّب قلبي ويتحرّق ، صب على رشاش رحمتك

حين ينزع الحنان من على الأرض ، إبعث إلى بنشيدك العذب

حين يعلو ضجيج العمل فيشمل كل مكان فيباعد بيني وبين الناس جميعاً ، أرسل إلىّ — يا إلٰه الصمت — فيض الهدوء والأمان

حين يخرّ قلبي الضعيف ساجداً فى عزلته ، افتح الباب — يا مليكى — وتعال إلى فى أبهة الملك

حين تعمى الرغبة اللحة قلبي وتنفث فيه الغواية ، إلىّ — أيها القدس — فى برقك ورعدك

— ٤٠ —

لقد كفّ غيثك — يا إلٰهى — عن قلبي الظمآن منذ أيام وأيام ، والأفق قفر ليس فيه غمامة رقيقة ولا أثر قطرة واحدة

وإذا شئت فانفخ من عواصفك الهجوم ما يحمل ريح الموت ثم املأ السماء بالبرق الخاطف

ولكن ردّ عنى — يا إلٰهى — هذه الحرارة المتسعرة الصامتة فهى فى شدتها وقسوتها تلفح القلب بنار اليأس القاتل

ثم دع سحائب الرحمة تنهل علينا من عل كأنها نظرات أم عطوف ترى الأب يتزيّى غضباً فتترقرق فيها عبرات الحنان

— ٤١ —

يا من أحب ، أين مكانك من وراء الرمز ، وأنت تتوارى فى ظلالهم ؟ إنهم ينطلقون على الطريق الغرب ، يمرون بك فلا يلتفتون إليك ؛ وأنا هنا أنتظر الساعات الطوال فى قلق وبين يدى الهدايا ، وحين يمرون بى يلتقطون زهورى واحدة واحدة وسلتى تكاد تفرغ

لقد تصرّم النهار ، وجاء الليل ينشر ظلامه ، والنعاس يداعب جفنىّ ، والناس ينطلقون إلى دورهم ، وفى أعينهم نظرات التهكم والسخرية ، وفى قلبي الخجل . إننى هنا أنتظر فى جلسة الشحاذ ، أرخى فضل ثوبى على وجهى ، وحين يستخبرونني أعرض عنهم فى صمت

أوه ، كيف أخبرهم بأننى أنتظرك وأننى منك على ميعاد ؟ كيف أستطيع أن أقول لهم إننى أقدم فقرى مهراً لك ؟ آه ، سأكتم كبريائى فى أعماق قلبي

أننى أقضى الساعات على الحشائش الخضراء أحدق فى السماء وأرخى لخيالى العنان أحلم بساعة اللقيا الجميلة — فيخيل إلىّ أن النور يسطع وأن الرايات الذهبية تخفق فوق مركبتك ، والناس على جانبي الطريق يحدقون فى ذهول حين يرونك تهبط من عليائك لتنتزعنى من التراب ، ولتجلس إلى فتاة فقيرة ترتدى الأسمال ، وهى تضطرب من أثر الحياء والكبرياء كأنها حشرة تتهادى بين نسمات الصيف

إن الساعات تمر وأنا لا أحس صوت عربتك . كم حفل مر بى فى ضجة ولجب فيه سحر الأبهة ! أفتبقى أنت من ورائهم تتوارى فى صمت وأنا أقضى حياتى أنتظر عبثاً أبكى وقلبي يتقطر ؟

— ٤٢ —

فى بكرة الصباح سمعت همسة : ستبحر معه فى قاربك ، أنتما معاً فقط ، وما فى العالم من يعرف شيئاً عن هذه السفرة ، فهى إلى غير غاية وإلى غير نهاية

فى أضعاف ذلك اليم اللانهائى وعند بسمتك الرقيقة الهادئة ستحور أغانىّ إلى لحن طليق كالموج ... لحن لا تحده الألفاظ

أفلم يأنّ لى ؟ أفلا يزال هناك ما يشغلك عنى ؟ يا أسفا ! لقد أسدل الليل أستاره على الشاطئ ونزع الطير إلى وكره

من يدرى متى ترفع السلاسل ويندفع القارب فيتوارى فى أحشاء الليل كأنه آخر شعاع من أشعة الطفل ؟

— ٤٣ —

ما كنت أهيئ نفسى للقياك حين وجدت السبيل إلى قلبي ، فدخلت إليه — يا مليكى — دون إذن كأنك واحد من الشعب غريب عنى ، فطبعت على لحظات من عمرى بطابع الخلود

واليوم كشفت عن تلك اللحظات — على حين فجأة — فألفيتها منثورة على التراب وعليها خاتمك ومزاجها ذكرى أيام قليلة من حياتى الغابرة فيها الأسى والطرب فى وقت معاً

لا تزدد عنى محتقراً سنى طفولتى حين كنت ألهو باللعب فى التراب ، فإنه ليتراءى لى أن خطواتى وأنا أدرج فى حجرتى بين

اللُّعب تشبه تلك التي يدوي صداها بين النجوم

— ٤٤ —

إن متعتي في أن أجلس على جانب الطريق أنتظر وأرقب الظلام وهو يطارد النور ، والمطر وهو يتعقب صفاء الصيف

ورسلك يمرون بي وعليهم بشرى السماء يحيونني وينطلقون في سبيلهم فيهتز قلبي طرباً وأنا أستروح النسمات الحلوة من الفجر لدن الغسق وأنا جالس بإزاء بابي لأنني أوقن بأن فترات السعادة آتية لا مرية فيها ، آتية حين أرى ...

في هذا الحين سأخلو إلى نفسي أبسم وأترنم والهواء يتضوع بأريج الوعد

— ٤٥ —

أفلم تحس وقع خطواته الهادئة ؟

هو آت ... آت ... وداعماً هو آت

في كل لحظة وحين ، في كل يوم وليلة ؛ هو آت ... آت ... وداعماً هو آت

لقد شدوت بألحان كثيرة ما تزال رناتها تقول : « هو آت ... آت ... وداعماً هو آت »

في اليوم الصحو المطر من شهر ابريل ، وعلى طريق الغابة هو آت ... آت ... وداعماً هو آت

في عبوس الليلة المطيرة من شهر يوليه ، وعلى مركب السحب المزمجرة هو آت ... آت ... وداعماً هو آت

إن خطواته هي التي تسحق قلبي في لحظات الأسى والحزن ولكن لمسات قدميه الذهبية هي التي تبعث الطرب في قلبي مشرقا

— ٤٦ —

لست أدري منذ كم من الزمان وأنت تهفو تريد لقياي ؛ وما تستطيع شمسك ولا كواكبك أن تحجبك عني إلى الأبد

ما يزال وقع قدميك يرن في مسمعي كل صباح وكل مساء ، وما يزال وحيك يهتف في قلبي ويناديني سراً

لست أدري لماذا تضطرب حياتي في هذه الأيام ، وفي قلبي نبضات السرور

لكأني أرى الأيام تهم لتنجز عملي ، وأنا أستروح النسيم الحلو يبشرني بقدومك

— ٤٧ —

أوشك الليل ينحسر وأنا أنتظر عبثاً . إنني أخشى أن يحضر والفجر ، وقد غلبني النعاس والتعب معاً . فيا صاحبي دع الطريق أمامه مفتوحاً ولا تقف في سبيله

وإذا لم توقظني خطواته فلا تفزعني أنت عن منامي ؛ فما أريد أن يزعجني عند انبثاق الفجر ، لحن الطائر الغريد ، ولا زفيف الريح . ذرني هادئاً في نومي ولو جاء سيدي إلى بابي

أيها النوم ، أيها النوم اللذيذ ، إنك تنتظر لمساته لتطير عني . آه ، سينفض نورُ بسماته عن عينيَّ ثقلَ الكرى ، وهو أمامي كأنه حلم لذيذ يلمع بين ظلمات الهجوع

فليأت أمام ناظريَّ كأول شعاع أضاء وكأول شبح بدا . إن نظراته ستبعث في حياتي العابسة أول هزات الطرب . وحين أعود إلى نفسي فلتكن عودتي إليه هو

— ٤٨ —

إن صمت الفجر العميق يمزقه رجع تغريد الطير ؛ والأزاهير نشوى على جانبي الطريق ، وبين تفاريق السحب تنثر الثروة الذهبية ؛ أما نحن فنهرع إلى العمل في شغل لا تلتفت

ليس في ألحاننا النشوة والطرب ؛ ولم تنطلق إلى القرية طلباً للفائدة ؛ ولم تنفرج شفاهنا عن كلمة أو ابتسامة ، وما تريثنا على الطريق ؛ ولكن رحنا نستحث الخطو كلما انطوى الزمن

تكبدت الشمس السماء والبط يجوح تحت وارف الظل ، وأوراق الشجر تضطرب في الهاجرة ، وغفا الراعي في ظل شجرة الرند يحلم ؛ أما أنا فاستلقيت إلى جانب الغدير مرسلاً أطرافي المكدودة على الحشائش

لقد سخر مني صحابتي وانطلقوا في سعر فلم يعقب واحد منهم ولم يستأن ، ثم غابوا عند الأفق . لقد اجتازوا مهامه ومروجاً وبلاداً نائية عجيبة . لك المجد يا من تملك الطريق اللانهائي ! إن السخرية واللوم أفزعاني عن مكاني ، وإن لم أجد الرضا في نفسي فلقد فقدت نفسي في أعماق الخشوع الجميل ... فقدتها في ظلال النشوة الغامضة

إن وشي الشمس الجميل انتشر في بطء على قلبي فأنساني ما انطلقت على أثره فأسلمت عقلي — في غير عناد — إلى مباهج الظل والأغاني

وأخيراً حين استيقظت من سباتي وجدتك إلى جانبي تنزع عني النوم بابتساماتك . كم خشيت أن يكون الطريق إليك طويلا وعراً ، وأن يعجزني أن أصل إليك !

كامل محمد محمد